أخبار الأدب
AKHBAR ALADAB

الأحد 21 من ديسمبر سنة 2008م - 23 من ذو الحجة سنة 1429هـ - العدد 806

"الجامعة" التي افتقدناها

د. إيمان يحيي :أستاذ مساعد في كلية الطب جامعة قناة السويس كاتب ومثقف وطني

لم يكن الدكتور رؤوف عباس مؤرخا مرموقا وحسب، بل كان أيضا صانعا للأفكار والثقافة بجانب كونه إنسانا راقيا متعدد المواهب والملكات، من يقرأ سيرته الذاتية »مشيناها خطي«، يكتشف روائيا ذا عين لاقطة طازجة وقدرة فائقة علي الحكي.

تعرفت عليه في جلسة »السبت«، تلك الجلسة التي كانت تعقد أحيانا أسبوعيا وأحيانا في السبت الأول من كل شهر. كانت زينة هذه الجلسة الراحل الكاتب المثقف جلال السيد والدكتور رؤوف عباس والكاتب الصحفي عبدالعال الباقوري. نستطيع أن نطلق علي تلك الجلسة بإطمئنان، أنها كانت بمثابة «جامعة»، تتلاقح فيها الأفكار والمشروعات الثقافية.

لذا لا يمكنني إلا أن أقول أنني كنت تلميذا في جامعة »رؤوف عباس«، رغم أنني بحكم التخصص لم أكن طالبا بقسم التاريخ بجامعة القاهرة.

في تلك الجلسة نبتت مشروعات وأفكار كبيرة. تأسس »صالون النديم للفكر العربي« بها، والذي كان رؤوف عباس مؤسسا ومخططا بارزا لأنشطته. وفي تلك الجلسة أيضا تحولت أحلام وأفكار إلي كتب ودراسات منشورة لأعضائها. ولعل »جلسة السبت« تلك كانت امتدادا لتقليد تعلمه ومارسه رؤوف عباس، عندما إنضم إلي حلقة مريدي أستاذه الأثير د.أحمد عبدالرحيم مصطفي في مقهي »متاتيا« في بداية الستينيات.

كان رؤوف عباس حكاء من الدرجة الأولي. ولعل حكاياته التي كان مشاركا فيها وشاهد عيان عليها، تعد بحق شهادة تاريخية علي واقعنا الثقافي والاجتماعي. امتلك قدرة عجيبة علي التقاط المفارقة في حياتنا، مبرزا مدلولاتها التاريخية والاجتماعية. لم يمهله القدر أن يكتبها بأسلوبه الأخاذ، وكناقد اقترحنا عليه أن يصدر جزءا ثانيا من سيرته الذاتية، وكان رحمة الله عليه يمازحنا باختيار عنوان »أدمغة وأقفية« لتلك الحكايات الثرية. ربما لا يعرف البعض، الدور الذي لعبه رؤوف عباس لسنوات طويلة في ادارة دار فكر للنشر والتوزيع ، التي امتلكها الراحل طاهر عبدالحكيم. كما أنه ساهم بدور استشاري لعدد من دور النشر، كان منها دار سينا للنشر. كان موسوعي المعرفة، في زمن ندر فيه »المثقف الموسوعي«. كان يقرأ في التاريخ بالطبع، وإلي جانبه الاقتصاد والسياسة والاجتماع.. كان أيضا متابعا جيدا للأعمال الأدبية والروائية. في أيام مرضه العضال كان يقرأ أكثر من رواية في يوم واحد من أيام تلقيه العلاج الكيميائي في المستشفي. ينظر إلي »الرواية« بعين المؤرخ المدققة، لأنه كان يعتبر »الأدب« وثيقة تكشف الحياة الاجتماعية والسياسية لحياتنا.

تعلمت من »رؤوف عباس« الكثير. ولعل أهم ما تعلمته في «جامعته« هو الاعتداد بالنفس والقدرة علي خوض المعارك في صف الحق والمباديء. لم يمالئ يوما ما الفساد أو الاستبداد. كانت هامته عالية لا تنحني إلا لخالقها، تعلمت منه أيضا أن الانسان قد يغير أفكاره ولكنه لا يغير مبادئه، ولعل رؤوف عباس نفسه في موقفه من تاريخ الحقبة العثمانية في مصر قد غير أفكاره عبر بحث علمي متصل، ولم يجد في ذلك عيبا ولا نقيصة. ولعل ذلك هو أهم درس يتعلمه الباحث في مدرسة رؤوف عباس العلمية، تعلمنا منه أيضا كيف يكون الانسان معتدا بنفسه، وفي نفس الوقت يظل متواضعا مع البسطاء، معطاء وأن يصبو طوال حياته أن تكون الانسانية مرجعه الحياتي في مسلكه، كان من صنف القديس الراحل »نبيل الهلالي«.

استطاع عبر علاقته مع طلابه أن ينسج علاقة غير مسبوقة في جامعاتنا. هو بمثابة الأب الحنون، ولكنه في نفس الوقت صارم، لا يقبل أنصاف الحلول أو التساهل. يحرضهم علي التمرد عليه وعلي انتقاد منهجه ويثير فيهم الحمية لأن يكون لكل واحد منهم نظرته الخاصة التاريخية. في نقاشاته لا يطرح إجابات شافية، بل أسئلة وتساؤلات تفتح الأبواب لأفكار جديدة.

لم يكن »رؤوف عباس« محترفا للسياسة أو منضما إلي أي تنظيم سياسي طوال حياته. منذ شبابه أدرك أن تنظيمات الثورة قد تحلق حولها المنتفعون والمنافقون، ووعي بعدها أن الأحزاب القائمة عاجزة ومشلولة. كان حريصا علي استقلاله الموضوعي، حتي لا يفسد موضوعية دراساته التاريخية. لكنه كان ذا موقف سياسي واضح. كان منحازا اجتماعيا الي الفقراء والكادحين، لذا فإنه كان يساريا وقوميا ووطنيا في نفس الوقت. امتشق قلمه ودخل به معارك طاحنة علي صفحات الجرائد دفاعا عن وحدة مصر الوطنية وعن مجانية التعليم واستقلال الجامعة. كان موقفه واضحا وجليا ضد التطبيع وضد اتفاقات كامب ديفيد، مما دفع البعض الي اتهامه بمعاداة السامية!

في السنوات الأخيرة كان أحد الموقعين الاوائل علي بيان تأسيس حركة »كفاية« المعارضة، وكان مؤسسا ومنظرا بارزا لحركة »٩ مارس« المطالبة باستقلال الجامعة المصرية. لم يدخر مالا أو جهدا في دعم أي نشاط عام يهدف إلي التغيير والمصلحة العامة. في مرضه الاخير وقبل وفاته بشهر واحد، ورغم شبح التكاليف الباهظة لعلاج ميئوس منه، فوجئت به يعطيني مظروفا به خمسة آلاف من الجنيهات تبرعا لعائلة أحد المثقفين، الذي أعطي عمره لليسار ووجد نفسه في نهاية المطاف ضحية من ضحايا قياداته وتنظيماته.

حاولت اثناءه، ولكنه أصر كعادته، لم يكن قد قابل الرجل سوي مرات معدودة، ولكنها أريحية وإنسانية رؤوف عباس التي أغرقت تلاميذه وأصدقاءه ومريديه.

حتي آخر أنفاسه، كان »رؤوف عباس« يعمل ويواصل مشروعاته البحثية، قبل مرضه بشهور قليلة ذهب إلي لندن ليجمع الوثائق البريطانية الخاصة بتاريخ الصراع العربي - الاسرائيلي في النصف الثاني من القرن العشرين. كان ضمن مشروعاته كتابة تاريخ الحركة الفلاحية والصراع الاجتماعي في الريف خلال القرن الماضي. في أثناء مرضه أنهي كتاب »الجامعة المصرية والمجتمع« الذي صدر عن حركة ٩ مارس، وانهي ترجمة كتاب »برلمان الانسان« وهو تحت الطبع بالمجلس الأعلي للثقافة، لم أر في حياتي دأبا وعملا متواصلا.. كما رأيت من رؤوف عباس. كان الرجل »جامعة« بحق، ولعل سيرته ومسيرته هي أكبر الدروس لأجيال شابة طالما افتقدت القدوة والمثل في حياتها.

http://akhbarelyom.org.eg:81/adab/articleDetail.php?x=adab2008&y=806&z=1982&m=4